# نحن والاستشراق

## ملاحظات نحو مواجهة إيجابية

عبد النبي اصطيف

### القسم الثاني

**ثلاثة خيارات**

كيف يمكننا نحن العرب ، في ضوء ما تقدم عن واقع العلاقة بين الاستشراق والعرب ـ هذه العلاقة المحكومة **بالثنائية وتكافؤ الضدين** ـ أن نتعامل **كداخليين Insiders** مع هذا التقليد الثقافي العريق ، وما **الخيارات** المتاحة أمامنا .

يبدو لي ـ وبغرض تبسيط الأمور ـ أننا أمام خيارات ثلاثة :

**أولها :** أن نرفض هذا التقليد جملة وتفصيلاً ونوفر على أنفسنا حتى عناء مناقشته .

**وثانيها :** أن نقبله دون تحفظ وأن نغضي طرفنا عما فيه من تضمنات أيديولوجية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية .

**وثالثها :** أن نتعامل معه تعاملاً نقدياً ، وأن نأخذ ونرفض على هدي

---

● نشر القسم الأول من المقالة في مجلة مجمع اللغة العربية ( مج ٥٧ ج ٤ ) : ٦٤٨ ـ ٦٦٥ .

البصيرة النقدية ، والتفحص المتمعن أو قل أن نواجهه مواجهة إيجابية .

☆ ☆ ☆

**الخيار الأول أو الرفض المطلق :**

يبدو لي أن هذا الخيار هو أسهل الخيارات فهو يريحنا من الكثير من العناء . وهكذا نجد أنفسنا أننا لسنا بحاجة إلى تتبع ما يصدر عنه من حصيلة ثقافية ، وعلى أي حال « فالاستشراق ـ كما يقول الدكتور حسام الخطيب ـ هو علم أوربي ، أي أنه كتب باللغات الأوربية من أجل الأوربيين ، إنه صورة ما توصلت إليه أوربا في معرفة الشرق . وهو يعكس موقفاً أوربياً وعقلية أوربية »[1] . ولذلك ، فإنه ـ وإن كنّا موضوعه ـ لا يعنينا في شيء ، ولا يضيرنا إن تجاهلناه . وقد يقول قائل : لم نضيّع الوقت والمال والجهد والطاقة في سبيلِ ما لا جدوى منه ولا عائد ؟ وما ذا يفيدنا أن نتتبع أخبار الاستشراق ، أو أن نترجم كتبه ، ونناقش ما فيها ، وننقدها ، ونفند ما نراه غير صحيح مما تضمه من آراء ، ونغضب فيما لا طائل منه ؟ هل كان الاستشراق غير نتاج خارجي ، كتبه خارجيون لا يكاد معظمهم يحسن اللغة التي نتكلم بها ، فكيف بهم عندما يناقشون ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا وتاريخنا وثقافتنا وأدبنا واقتصادنا وسياستنا . إنهم بالتأكيد لن يصلوا إلى حقيقة ذات قيمة تتصل بنا ، وبالتالي فلا ضير علينا إن أغضينا طرفنا عما يعلمون .

وإضافة إلى ما قدمتُ من عقابيل تبني خيار كسول كهذا عندما تحدثتُ عن موقف الفئة الثالثة من المثقفين العرب من الاستشراق ، أجدني مضطراً إلى الإشارة إلى أن نظرة الآخرين لنا وتعاملهم معنا ،

ونظرهم في أمورنا ومناصرتهم - أو معاداتهم - لقضايانا المصيرية وما إلى ذلك من أمور ، هي متصلة وعلى نحو وثيق بهذا التقليد ومتأثرةً به سواء أسرّنا ذلك أم أغضبنا ، قبلناه أم رفضناه .

وحتى أُقنع أصحاب هذا الخيار الكسول ، فإنني أشير إلى ظاهرة تلمستها بنفسي وبوضوح خلال إقامتي في الغرب وتعاملي مع الدراسات العربية المكتوبة بالانكليزية ، ظاهرة تحدثت عنها في غير هذا الموضع وأجدني بحاجة إلى الإشارة إليها مجدداً في هذا السياق . فقد لاحظت أن ثمة اهتماماً متزايداً بالأدب العربي الحديث ضمن أوساط المثقفين الأجانب عامة ، وضمن دوائر الدراسات العربية على نحو خاص ، ولاحظت كذلك أن كثيراً من باحثي الأدب المقارن بدأ يلتفت إلى هذا الأدب ويدرس علاقاته بالآداب الأخرى ، ويقارن ألوان التجارب الإنسانية التي يقدمها أدبنا مع غيره من الآداب الأخرى . وبالطبع فإن كثيراً من هؤلاء لا يحسنون اللغة العربية ، وهم ( وإن أحسنها بعضهم ) أميل إلى التسهيل على أنفسهم ، ومن ثم تراهم يلجؤون إلى ترجمات هذا الأدب أو النظر في دراساته باللغات التي يحسنونها . وليس ثمة من شك في أن الانكليزية تكاد تكون لغة الاستشراق الرئيسية ، وهذا لا يعني بأي حال النظر باستخفاف إلى ما يصدر باللغات الأخرى كالفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والروسية ، ولكنه مجرد إشارة إلى أن ما ينشر بالانكليزية يكاد يفوق ما ينشر بأية لغة أخرى ، إضافة إلى كون الانكليزية من أوسع اللغات انتشاراً في عالمنا اليوم ، ( إذا ما استثنينا اللغة الصينية بالطبع ) .

ويبدو أن المؤسسات الثقافية الصهيونية في الكيان العنصري وخارجه

شعرت بهذا منذ زمن ( ومن المؤسف أنهم أخبر منا : عندما يتعلق الأمر بهذه النواحي ، فهم يحاربوننا في كل المجالات ، وليس على جبهة القتال وحدها ، ويفيدون من كل الوسائل المتاحة لديهم مهما كانت ، ومهما كان مصدرها وشكلها ) ورأت فيه ثغرة يمكن أن ينفذ منها ، وهكذا شرع الكثيرون من الباحثين الصهاينة بالاهتمام بهذا الأدب ودراسته ونشر دراسات جادة عنه تنشرها أكبر دور النشر الاستشراقية بمساعدة تقدمها الجامعات الصهيونية[٢] . وأنا لا يهمني أن أناقش مضمون هذه الدراسات ، ولا أن أحلّل دوافعها هنا ( علماً أن أغلبها رسائل جامعية أجيزت من أفضل الجامعات الأوربية والأمريكية ) ، ولكني أود أن أشير إلى أن هؤلاء الباحثين الصهاينة ـ سواء أعترفوا بذلك أم لم يعترفوا ، قصدوه أم لم يقصدوه ، اندفعوا إليه بحب هذا الأدب والاهتمام به كأدب جدير بالبحث والدراسة أم بغاية أخرى أكاديمية أو غير أكاديمية ـ يريدون للمستعربين والمهتمين بدراسة الأدب العربي الحديث أن ينظروا إلى هذا الأدب من خلال العيون الصهيونية ، وأن يقبلوا بشكل غير مباشر آراء الصهاينة فيه وتقويمهم له وتحليلاتهم . وبالطبع فإن ثمة تضمنات أخرى لهذه العناية يمكن أن يفيد منها السياسيون الصهاينة ورجال آلة الحرب في كيانهم ، أهمها القول للعالم أجمع بلغة البحث الأكاديمي « الموضوعي » ، نحن أكثر اهتماماً بالعرب وثقافتهم وأدبهم وتاريخهم منهم بأنفسهم ، ونحن نقوم بهذه المهمة خير قيام ، ونتحمل عبء الرجل الأوربي في تمدين المنطقة وتحضيرها ، والحفاظ على تراثها الثقافي والتعريف به ونشره بين قراء الغرب ، ولا نلقى مقابل ذلك من هؤلاء العرب غير الحقد والتهديد والتلويح بالحرب والدمار والإلقاء بالبحر[٣] .

ولا شك أن رأياً عاماً غربياً محملاً بالإحساس بالذنب تجاه من اضطهد من

اليهود في أيام النازية والفاشية ، ومفعماً بإحساس الحسد والغيرة من العرب للثروة التي يتمتعون بها والتي ألقيت بين عشية وضحاها بين أيديهم وهم الشعب المتأخر البربري والمتوحش والبدوي و « الإرهابي » ، ما يفتأ يهدد بها الغرب المتمدن المتحضر ، أقول إن شعباً كهذا يتقبل هذا ويفهمه لأنه اللغة التي يعرفها ويخاطب بها .

هل نقول بعد هذا إن الأمر لايعنينا ، وأنه لا يؤثر فينا ، وأننا نستطيع أن نتجاهله ؟ أو أن نتركه كما في هذه الحالة إلى الباحثين الصهاينة ليغدوا حجة في ثقافتنا وأدبنا وحضارتنا على حساب كسلنا الفكري وتقصيرنا بحق أنفسنا ؟

وهناك أمر آخر أشار إليه باحث عربي معروف بنظرته المتزنة إلى تقليد الاستشراق ، تلك النظرة التي تستند إلى خبرة مباشرة به امتدت على فترة طويلة من الزمن معه . يقول الدكتور حسام الخطيب :

« إن العالم المتقدم غرباً وشرقاً لم يعد يعتمد على البحوث العامة الشاملة الآخذة من كل شيء بطرف . بل اتجه ـ كما هو معلوم ـ إلى التخصص الدقيق جداً . وهكذا ألغيت تقريباً كلمة مستشرق ، وحلت محلها كلمة مستعرب أو Arabist ، أي مختص بالدراسات العربية . وأصبحت هذه الدراسات تجري في مراكز بحث علمية ، متعددة التخصصات المتعلقة بالبلاد العربية ، وهذه المراكز تضم مكتبات غنية جداً ، وتضم أيضاً فرقاً مدربة على البحث والإحصاء والتأليف المشترك . ويجد فيها الإنسان اليوم معلومات وتحصيلات غزيرة حول نواحي الحياة العربية من اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وفنية .

وهذه المراكز ذات خطورة واضحة ليس لأنها تقدم « معلومات

خاطئة » أو لـ « تشويهها » لما هي عليه الأمور في البلاد العربية ، بل لأنها تقدم صورة علمية دقيقة تزود المختصين السياسيين وغيرهم بما يريدون أن يعرفوه عن أية منطقة عربية أو ناحية من نواحي الحياة العربية التي تكون موضع اهتمامهم ، وبذلك ليس بعيداً عن الصحة ما يقال عادة من أن ( الآخرين ) يعرفون عنا أكثر مما نعرفه عن أنفسنا[٤] »

وهكذا فإن ثمة سميناً يمكن أن نجده في اهتمامنا بهذا التقليد وفي تتبع أحدث ما يقدمه ، وخاصة فيما أشرت إليه في غير هذا الموضع على أنه من ملامح الاستعراب الجديد[٥] ، وأهم إسهامات المستعربين العرب ، أولئك الذين قدر لهم أن يعيشوا في الغرب وينشروا بلغاته ويدرسوا في جامعاته .

الخيار الثاني أو القبول غير المشروط

أما الخيار الثاني فهو قبول كل ما يأتينا به الاستشراق على عواهنه ، وإغضاء الطرف عما فيه من تضمنات أيديولوجية وسياسية ، واعتماد بياناته أساساً لفهم أنفسنا ، ولم لا ، وهو حصيلة ثقافة غربية رفيعة تصدر عن حضارة غربية نحاول جهدنا الوصول إلى ما وصلت إليه ونسعى إلى محاكاتها بكل ما أوتينا من قوة .

وفوق ذلك فإنه لا يسعنا أن نستخدم الطائرة التي ينتجها الغرب ، ونفيد من تسهيلات الأقمار الصناعية في اتصالاتنا والحاسبات الآلية في مختلف مرافق حياتنا ، ثم نرفض بعد ذلك ما يقوله عنا . وهو على أي حال أكثر معرفة منا بأنفسنا . إنه يملك التسهيلات والمنهج فلماذا لا يملك حصيلتها ، أو قل إنه يملك القوة والسلطة التي يمارسها بشكل أو بآخر في هذا الوجه أو ذاك من الحياة العربية المعاصرة ، فلماذا لا يملك المعرفة .

وهو يملكها حقاً .

وأكثر من هذا فإننا بذلك نوفر على أنفسنا المال والوقت . إن إنتاج كتاب عربي بحاجة إلىٰ عدة سنوات من التفرغ تتيحها للباحث العربي ، وإلى تسهيلات كثيرة ، وأموال طائلة ننفقها عليه ، وترجمةُ كتاب لا تقتضي أياً من هذا . صحيح أننا قد نقع على آراء لا تسرنا ، ولكن هذا متوقع فنحن أمة متخلفة ، ومن الصعب أن نجد في أوضاعنا الراهنة كبير راحة واطمئنان ورضىٰ لأنفسنا بله نفوس الخارجيين من المستشرقين .

فلنتخلّ إذن عن المشاعر القومية الشوفينية ، وعن العاطفية والذاتية ، فما ينتجه الغرب انتاج على قدر كبير من الموضوعية . والحكمة ضالة المؤمن ، وإضافة إلى ذلك أليس تراثنا نفسه ينصحنا بأن نطلب العلم ولو في الصين . والحقيقة في نهاية الأمر لا ترضي . ومن يحب الحقيقة على أي حال ؟

وعلى رغم كل ما يمكن أن يلفع خياراً كهذا الخيار من مظاهر الواقعية والعملية والانفتاح وسعة الأفق ، فإنه موقف على غاية ما يكون من الجرأة في اللامبالاة بعقابيله . وأكثر من هذا فإنه يبدو أكثر غرابة عندما نتذكر أن الاستشراق اليوم يخضع لعملية نقد أساسية من قبل المستشرقين أنفسهم وإذا كانوا هم أنفسهم ـ أو جملة صالحة منهم وخاصة من المستشرقين الشباب ـ لا يعتقدون بعصمة هذا التقليد الثقافي العريق ويعملون يد مباضعهم فيه ليطهروه من الكثير مما علق به من أهواء ونزعاتٌ وتضمنات عرقية وعنصرية وأيديولوجية ، فإن من الغفلة حقاً أن يقبله الداخليون هكذا دون تمحيص .

وحتى لا يكون الحديث عن أمر كهذا حديثاً نظرياً بحتاً ، فإنني

أود أن أشير إلى مثال قريب العهد هو كتاب ألفه مستشرقان لا معان هما باتريشيا كرونه ومايكل كوك تحت عنوان « الهاجرية : صنع العالم الإسلامي » يمكن وصفه بأنه تمرين فكري عابث وعديم الجدوى ، إذا ما أحسن الظن به ، أو بأنه تهجم أكثر ما يكون بعداً عن اللباقة والتهذيب على جوهر العقيدة الإسلامية ، واستعراض عضلات منهجي على غاية من نقص الحساسية الإنسانية إذا ما نظر إليه نظرة غير متعاطفة . فهما يكتبان مقدمين كتابها :

« إن العرض الذي نقدم لأصول الإسلام ليس ذلك الذي يستطيع أن يقبله أي مؤمن ... لقد كتب هذا الكتاب لكفرة ومن قبل كافرين ، وأقيم على ما يجب أن يبدو من منظور أي مسلم أنه تقدير مُغالٍ فيه لشهادة مصادر الكفرة »[٦] .

والواقع أن ما يروّع في هذا الكتاب هو **الانتقائية المغرضة التي تسود اختيار مادته ، وتحكم محاجته** . ففضلاً عن إهمال المؤلفين غير المسوغ لمراجع أساسية في التاريخ الإسلامي بعضها لمستشرقين معروفين بطول باعهم في حقل الدراسات التاريخية الإسلامية ، فإنها لا يثقان مطلقاً بالمصادر الإسلامية وهكذا يكتبان :

« من المعلوم تماماً أن المصادر الإسلامية ليست مبكرة بشكل يمكن التدليل عليه ، وليس هناك أي دليل صلب على وجود القرآن في أية صورة قبل العقد الأخير من القرن السابع ، كما أن الحديث الذي يضع هذا الوحي الغامض في إطاره التاريخي لم يخضع للتمحيص قبل منتصف القرن الثامن . وهكذا فإن تاريخية التراث الإسلامي خلافية إلى حد ما : فبينما لا توجد أي أسس داخلية مقنعة لرفضه ، ليس هناك على قدم

المساواة أية أسس خارجية مقنعة لقبوله . وفي مثل هذه الظروف فإنه ليس من المعقول أن يمضي بالطريقة المعهودة إلى تقديم رواية محققة بشكل معقول للتراث كحقيقة تاريخية . ولكن ، وعلى النحو نفسه تماماً ، فإن المعقول اعتبار الحديث وكأنه دون مضمون تاريخي محدد ، والتأكيد على أن ما يفهم أنه روايات للحوادث الدينية في القرن السابع غير ذي فائدة إلا في دراسة الأفكار الدينية في القرن الثامن . إن المصادر الإسلامية تتيح مجالاً رحباً لتطبيق هذه المداخل المختلفة ، ولكنها تقدم القليل مما يمكن استخدامه بأية طريقة حاسمة للتحكم فيا بينها . وهكذا فإن الطريقة الوحيدة للخروج من هذه المعضلة هو المضي خارج التراث الإسلامي كله ، والبدء من جديد »(٧)

ويمضي المؤلفان خارج هذا التراث ويبدءان من جديد ، ويخرجان على الناس بقصة جديدة ، بل جد أصيلة في خيالها الجامح ، فالهاجرية أو البديل الجديد للإسلام الذي يقترحانه والذي يتخذانه عنواناً للكتاب نسبة إلى « هاجر » أم اسماعيل وزوج ابراهيم عليهما السلام ، والمقصود به هو الدين الإسلامي الذي يفضلان أن ينعتا أصحابه أو أتباعه بالهاجريين Hagarenes أو Hagarites ، وأما النبي العربي محمد ﷺ فهو شخصية أسطورية ، لفقها المهاجرون ، وأما القرآن فهو نتاج مجهود الهاجريين الجماعي التراكمي ، وأما الذي كان وراء هذه الأسطورة فهو المهدي عمر الفاروق المخلص ، وأما أساس هذه القصة فهو المصادر غير العربية والمعاصرة لظهور الدين الإسلامي والتي تشمل المصادر العبرية والسريانية والسامرية والنسطورية واليعقوبية والأرمنية والقبطية وغيرها(٨) ( وجميعها بالطبع كانت مناهضة للدين الجديد في ذلك الوقت ) . ولما كانت « المصادر التي نستخدم تساعد على تحديد التوكيد الذي نوضعه

ضمن الكل المعقد للعملية التاريخية »[٩] فليس من الغريب أن يستطيع المؤلفان أن يخرجا علينا بهذه القصة المبتكرة .

والمهم هو أن هذه القصة التي وضعها أحد المستشرقين المنصفين بأنها « **أضغاث أحلام** » و « **ضلال مبين** » ، وأنها جديرة حقاً بأن تصبح « **نسياً منسياً** »[١٠] ، قد وجدت طريقها إلى الناس ، وأنها بعد النقاشات التي أثارتها بين صفوف المستشرقين ، صدرت بطبعة ذات غلاف ورقي وأن صاحبيها بعد نجاح محاولتها الأولى قد تابعا جهودهما فخرجت باتريشيا كرونه بكتاب آخر يحمل عنوان موحياً هو : « **عبيد على الخيل** »[١١] وخرج مايكل كوك بكتاب آخر هو « **العقيدة الإسلامية المبكرة** »[١٢] وكلا الكتابين من نشر مطبعة جامعة كامبريدج ، وما أدراك ما أهمية ما تنشره هذه الجامعة .

ترى هو يظل أصحاب هذه الموقف أو الخيار بعد اطلاعهم على عينة من هذا النوع من الاستشراق **المغرض المسف** على شيء من الاطمئنان لهذا التقليد وقبوله قبولاً أعمى ؟ لا أظنهم كذلك . وعلى أي حال فإن ثمة حدوداً للكسل الفكري الذي يمكن أن تعاني منه أمة . وكذلك فإن المرء يأمل أن تكون عقدة « الخواجة » التي طالما شكا منها ، وشقي بها ، الكثيرون من المثقفين العرب قد أخذت في طريقها إلى الانحسار .

**الخيار الثالث أو المواجهة الايجابية**

ولكن ماذا عن الخيار الثالث ، والذي أود أن أعنونه **بالمواجهة الإيجابية** لهذا التقليد الثقافي ـ هذه المواجهة التي ينبغي أن تتسم بالوعي والمعرفة والحس النقدي والثقة بالنفس ؟

يبدو لي أن هذه المواجهة يجب أن تهدف إلى قلب الأوضاع القائمة في الدراسات العربية ووضعها مرة أخرى على قدميها . فبدلاً من أن تكون الدراسات الاستشراقية الخارجية هي التيار الرئيسي ، والمرجع الأساسي لدراسة الثقافة العربية في حين تبقى الدراسات التي يقوم بها الداخليون هي الروافد ، يجب أن تصبح اسهامات العرب أنفسهم هي التيار الرئيسي والمجرى المحدد ، في حين تصبح اسهامات المستشرقين هي الروافد .

وبالطبع فإن طموحاً كهذا ليس حلماً أو مستحيلاً . ولكنه كذلك ليس أمراً سهلاً يمكن تحقيقه في عشية وضحاها . وهو كذلك ليس نوعاً من الرغبة المغرورة ، لأنه هدف مشروع أخلاقياً وعلمياً . فدارس الأدب الانكليزي على سبيل المثال ، رغم تقديره لإسهامات الباحثين غير الانكليز في دراسة هذا الأدب ، لا يمكنه إلا أن يعتمد بشكل أساسي على اسهامات الانكليز أنفسهم في دراسته له . وإذا كان هذا الأمر مسوّغاً ومقبولاً في دراسة الثقافات الأخرى ، فما الذي يمنع قيامه في الثقافة العربية إذا ما توفرت التسهيلات والعزيمة والصبر وبعد النظرة والرغبة الصادقة .

ولكن كيف الوصول إلى هذا الوضع الذي يطمح إليه كل دارس عربي غيور ؟

يتراءى لي أن ثمة خطوات مختلفة على المدى القريب والبعيد يمكن أن نبدأ بها ، ويمكن أن تقودنا إلى الوصول إلى هذا الطموح ، وبالطبع فإن هذه الخطوات هي مجرد اقتراحات شكلتها أساساً التجربةُ الشخصية لصاحب هذه السطور ، وهي تجربة ، مهما بولغ في أهميتها ، لا تزال محدودة في إطار المقدرة الإنسانية للفرد العربي في ظروفنا الحالية .

ولذلك فإن دارسين آخرين يمكن أن يقترحوا خطوات أخرى يرونها أفضل وأسرع للوصول إلى الهدف ذاته ـ وهو أن ينهض العرب الداخليون بدراسة ثقافتهم وأدبهم وحضارتهم ، وأن يصبحوا الحجة الأولى والمصدر الأساسي الذي ينهل منه الآخرون في معرفتهم لهذه الثقافة وذاك الأدب وتلك الحضارة . أو إذا ما شئنا استخدام كلمات الدكتور الخطيب : « عند ذلك يمكن أن نضع الاستشراق قديمه وحديثه في الموضع الذي يستحقه ، أي بوصفه رافداً يصب في بحر الدراسات العربية المتمكنة الواثقة من القيمة العلمية لما تقدمه ، وليس بديلاً عنها بأي حال من الأحوال »[١٣] .

**١ ـ في البدء كانت المعرفة**

ربما كانت أولى خطوات هذه المواجهة الإيجابية التعرف على موضوع هذه المواجهة ، أي النتاج الاستشراقي . فدون المعرفة المتبصرة ، المميزة للغث من السمين في هذا التقليد الثقافي ، ليس ثمة أمل في أن تقوم أية مواجهة ذات جدوى .

وبالطبع فإن طرق التعرف على هذا التقليد عديدة منها على سبيل المثال تخصيص دورية أو عدة دوريات لمتابعة جوانب نشاطاته المختلفة : ومنها إعداد الدراسات والمسوح والتقارير عن وضع الدراسات الاستشراقية في الدول الأجنبية المختلفة ، في مختلف حقول المعرفة المتصلة بالعرب ، ومنها تخصيص جزء من الدوريات العربية المعنية لمتابعة آخر تطوراته ومراجعة آخر ما يصدر عنه من كتب ومجلات ونشرات ؛ ومنها الترجمات بمختلف أنواعها ؛ ومنها الزيارات المباشرة لمراكز هذا الاستشراق والاطلاع عن كثب عما يجري فيها والاحتكاك المباشر مع القائمين على

مؤسساته . والمهم في الأمر هو عدم دفن الرأس في الرمال ، والقيام بتتبع ما ينجزه هؤلاء الخارجيون . والنظر في مجالات الفائدة التي يمكن أن تعود بها على العرب في مختلف النواحي .

٢ ـ المشاركة

وثاني هذه الخطوات هي المشاركة في مختلف فعاليته ونشاطاته ، هذه المشاركة التي تحمل معها ، بالإضافة إلى تعميق معرفتنا بهذا التقليد ، فائدتين هامتين :

**أولاهما :** لفت نظر العاملين في ميدان الاستشراق إلى ما يقوم به الداخليون من نشاطات وأبحاث لا يحسنها غيرهم ولا يستغني الخارجيون عنها ، وإلى إسهامات هؤلاء الداخليين في مختلف الجوانب المتصلة بالحياة العربية قديمها وحديثها أدباً وثقافة وتاريخاً وحضارة .

**وثانيهما :** خلخلة معاييره ومقاييسه الداخلية التي أكل الدهر عليها وشرب . فمع ازدياد اسهامات الداخليين إلى هذا التقليد ، تنبثق مفاهيم جديدة ، ومعايير مستويات مختلفة عما هو سائد في ميدان الاستشراق نتيجة طبيعته الخارجية . وعندها فإن اسهامات هؤلاء الخارجيين لا تقاس وتقيّمْ بالمقارنة مع ما ينتجه أمثالهم فقط ، بل مع ما ينتجه الداخليون أيضاً . وبالطبع فإن من الأهمية بمكان أن تكون مساهمة هؤلاء الداخليين من الجدية والرصانة والتوثيق بحيث تبز نتاج الخارجيين .

والمشاركة هذه يمكن أن تتخذ أشكالاً عدة منها :

أ ـ النشر في الدوريات الاستشراقية باستمرار ، وباللغات الاستشراقية ذاتها . ويمكن التغلب على صعوبات الكتابة بلغة أجنبية عن طريق اللجوء إلى الترجمة . فليس ثمة ما يمنع من ترجمة الاسهامات العربية إلى الانكليزية والفرنسية وغيرها من اللغات ، ومن ثم نشرها في الدوريات الاستشراقية إذا ما كانت على مستوى مقبول ، مثلما يمكن أن يحدث العكس .

وكذلك فإن عدداً لا بأس به من الداخليين يتقنون الكتابة باللغات الأجنبية ، ومن الأهمية بمكان تشجيعهم على النشر بهذه اللغات بل ربما تفريغهم لهذه المهمة .

ب ـ المشاركة الفعالة في المؤتمرات والندوات التي تقام حول الشؤون العربية في مختلف أنحاء العالم والتي تساهم المؤسسات الاستشراقية في الإشراف عليها أو تنظيمها أو الإعداد لها . ومن الضروري التشديد هنا على مسألة توفر الكفاية والجدية في صفوف المشاركين فيها من الداخليين .

جـ ـ نشر الكتب والرسائل العلمية والترجمات باللغات الأجنبية . صحيح أن الأصل هو أن يترجم ما هو صالح مما يصدر بالعربية إلى اللغات الأخرى ، وأن يقوم بهذه الترجمة الخارجيون أنفسهم إذا ما شعروا بالحاجة الماسة له ، والضرورة الملحة لمراجعته وتبينوا الفائدة المرتقبة منه ، ولكن ليس ثمة ما يمنع في حال توفر هذه الدراسات أو من يقوم بها من نشرها باللغات الأجنبية ، وإتاحة فرصة قراءتها لعدد أكبر من القراء للإفادة منها .

وكذلك فإن كثرة من الدارسين العرب قد أنهوا دراساتهم في

الجامعات الأجنبية ، وقدموا رسائل باللغات الأجنبية ، وبسبب جملة من العوامل لم تتح الفرصة لهذه الرسائل أن تنشر ، ذلك أن النشر في كثير من الأحيان مسألة تجارية بحتة ، وأبحاث كهذه محدودة السوق لا تغري بالنشر . إن محاولة إصدار هذه الرسائل بعد إعدادها وتحريرها على شكل كتب باللغات الأجنبية أمر هام ، بل إنه ربما يشكل خطوة من أهم الخطوات في زعزعة القيم الداخلية للاستشراق .

٣ ـ النقد الواعي :

وهو على نوعين : **نقد الداخليين** له وذلك من خلال مجالات المشاركات التي قدمتها ، ومن الضروري أن يكون هذا النقد نقداً موضوعياً علمياً بعيداً عن التهجم الشخصي أو الطعن ؟ **ونقد الخارجيين** الذاتي لتقليدهم ، إذ أن من الأهمية بمكان تشجيع هذا النقد ونشره والأخذ بيد أصحابه .

وربما كان يحسن بالمرء في هذا السياق أن يشير إلى أن من أكبر الخدمات التي قدمها كتاب ادوارد سعيد لهذا التقليد أنه فتح عيون أصحابه على حقيقة طالما أغفلوها ، وهو أنهم بشر وأنهم يخطئون ، وأن ثمة عالماً يتطور باستمرار من حولهم في مختلف الميادين وأنهم ينبغي أن ينفتحوا عليه ، ويطوروا هذا التقليد الذي أزرت به الأبعاد الأيديولوجية والسياسية . والأهم من ذلك أنه شجع المتنورين منهم على نقد الآخرين ممن سلبهم هذا التقليد حريتهم وإرادتهم كباحثين . لقد مضى زمن لم يكن يجرؤ فيه أي مستشرق أن ينتقد غيب ، أوبرنارد لويس ، أو ڤون غروبناوم ، أو شاخت ، أو ماسينيون أو غيرهم . ولكن أي متتبع لما ينشر في دوريات الاستشراق يستطيع أن

يلاحظ أن هؤلاء لم يعودوا كما كانوا بعيدين عن متناول النقد ، وأن أفكارهم وآراءهم غدت عرضة للتفحص والمراجعة والنقض والتفنيد والرد .

لقد خلق كتاب سعيد جواً صحياً في ميدان الاستشراق . ومن المفارقة حقاً أنه لم يجز الجزاء الذي يستحقه على هذه الخدمة الجليلة التي أداها لهم وهو الخارجي البعيد عن هذا التقليد ، بل راح بعضهم ( بما فيه بعض العرب ) يتسقط عثرات كتابه ويهاجمه بعنف حيناً وبشراسة حيناً آخر وبانفعالية محمومة حيناً ثالثاً ، وما ذلك إلا لأنه فجعهم بواقع حالهم إذ فتح عيونهم على هذه الحقيقة وهي أن الشرق الذي يدرسونه ، ويكتبون حوله ، ويناقشون شؤون أهله ، بعيد جداً عن الشرق الحقيقي إنه مجرد تصور خلقوه ، وعاشوا معه ، وصحبوه طويلاً ، والطريق التي سلكوها منذ أن خلق الاستشراق حتى اليوم لن تقودهم إلى شيء[١٤] .

**٤ ـ تشجيع المؤشرات الإيجابية في النتاج الاستشراقي الجديد**

وخاصة الذي ينتجه الجيل الجديد الذي يحاول أن يزعزع روابطه بهذا التقليد ، هذه المؤشرات التي تتمثل في الاهتمام بدراسة الأدب العربي اهتماماً يستند إلى اعتبارات أدبية وفنية خالصة وليس لأسباب خارجية عنه ، أو في الاهتمام بالبيبليوغرافيا الأجنبية والعربية ، أو في تطبيق المناهج والمداخل الحديثة في الدراسة وخاصة المقارنة والمتداخلة المعارف منها Interdisciplinary أو الدراسات المتخصصة الدقيقة والدراسات الميدانية .

ويمكن للتشجيع أن يأخذ أشكالاً عديدة منها تسليط الأضواء على هذه المؤشرات والاهتمام الجدي وذو الجدوى بمن وراءها ، عن طريق ترجمة نتاجه إلى العربية ، ودعوته إلى المؤتمرات والندوات التي تنظم في

الوطن العربي ، وإتاحة التسهيلات الممكنة له ، ومساعدته بشتى الوسائل حتى لايبقى صوتاً وحيداً ، وخاصة أن هذه الأصوات تكاد تكون وحيدة وخافتة في كثير من الأحيان ، وتتعرض باستمرار لشتى أنواع النقد من الاتهام بعدم الموضوعية أو الممالأة وغير ذلك .

● ● ●

**البديل أو خلق تقليد مكافىء**

والواقع أن كل ما تقدم من خطوات لا يكفي ، لأنه إنما يعالج المشكلة على المدى القريب ، ولا يحقق الهدف البعيد الذي نسعى إليه ، وهو خلق تقليد مكافئ في القيمة والمستوى يستطيع أن يحل محل الاستشراق ، أي خلق البديل لهذا التقليد الإشكالي .

ومن هنا فإن ثمة خطوات أخرى لا بد منها على المستوى البعيد ، سأحاول أن أوجزها غاية الإيجاز بسبب ضيق المجال المتاح . ولعل الفرصة تتاح لمناقشتها على نحو أفضل في دراسة مستقلة . وربما كان من أهم هذه الخطوات ما يلي :

**☆ النهوض بمستوى الدراسات العربية بشكل عام مادة وإخراجاً**

لا أظن أن ثمة من يماري في أن الكثير مما ينشر في دورياتنا ، ومما تخرج به مطابعنا على الناس لا يقوى إلا بشق النفس على مزاحمة نتاج الأمم الأخرى في أية مكتبة تهتم بالنوعية دون الكمية . وهو بالتأكيد لن يقوى على تحدي الزمن الآتي لأن زبده كثير . وما ينفع الناس فيه يكاد يكون كأوى الذي لم نر منه إلا ابنه .

ولا شك أن ثمة أسباباً مختلفة تكمن وراء تدني مستوى الدراسات

العربية جملة ، فالباحثون العرب على وجه الاجمال لا يتاح لهم التدريب الكافي لكتابة الأبحاث العلمية ، وكثرة منهم تعتمد مبدأ المحاولة والخطأ والتجربة الشخصية التي تكتسب عن طريق الممارسة وحدها .

وكذلك فإن وسائل البحث العلمي الجاد كالمكتبة الجيدة المزودة بالفهارس والمعاجم والكتب المساعدة وآلات التصوير وآلات قراءة الأفلام والحواسب الآلية وغير ذلك لا يكاد يتوفر على الغالب لهؤلاء الباحثين .

وأكثر من هذا فإن معظم باحثينا غير متفرغ ، إذ أن أغلبهم ينفق معظم وقته في طلب الرزق بالتدريس أو بالعمل الإداري أو الوظيفي ، ولا يكاد يتاح له الوقت الكافي لإنتاج عمل علمي ممتاز ، يحتاج أول ما يحتاج إلى فراغ في الوقت والنفس معاً لا يتوفر لجلّ دارسينا .

ورغم أن المرء يقدر هذه الأسباب والصعوبات الخارجة عن سلطان الدارسين العرب أنفسهم والتي لا سبيل إلى تجاوزها دون خلق مؤسسات للبحث العلمي في مختلف ميادين العلوم النظرية والتطبيقية والإنسانية بشكل خاص ترعى القيام بمهات التاريخ لثقافتنا وحضارتنا وأدبنا ، ودراستها وتحليلها ومناقشة القضايا المتصلة بها ، فإنه لا يمكنه من جهة أخرى أن يغفل عن نقطة هامة وحيوية ينبغي مراعاتها إذا ما أريد لهذه الدراسات أن ترتفع إلى المستوى المطلوب منها في ظروف كظروف الأمة العربية .

إن الدراسات العربية تفتقر اليوم في مجملها إلى مبدأ الانطلاق في كل بحث أو مشكلة أو قضية من النقطة التي وصل إليها الآخرون الذين سبقوا إلى معالجتها . إذ أن أغلبها ينطلق من نقطة الصفر .

وقد يعزو بعضهم أسباب هذا القصور إلى كاتبي هذه

الدراسات ـ وربما كان على حق في هذا ـ وإلى أنهم لايعيرون ما أسهم به غيرهم في هذا الميدان أو ذاك أدنى اهتمام . وهذا بعض الحقيقة ، لأنهم ينسون أن نقطة البدء في أي بحث هي مراجعة الببليوغرافيا الخاصة به ، ومعرفة ما كتب عنه ، وبالتالي محاولة الاستفادة من هذا الذي كتب وتطويره والوصول به إلى نتائج متقدمة .

ولا شك أن البدء بإعداد ببليوغرافيا شاملة ومستقصية للموضوعات المختلفة التي تتصل بجوانب الثقافة العربية والتاريخ العربي والحضارة العربية والأدب العربي أمر حيوي وهام إذا ما أريد للدراسات العربية أن تحقق قفزة نوعية في ميدانها ، لأن التقدم الذي أحرزته الدراسات العربية في الغرب والمكتوبة بمختلف اللغات إنما تحقق لها بتطبيق مبدأ متابعة البحث من النقطة التي انتهى الآخرون إليها وليس من نقطة الصفر . وبالطبع فإن هذه المتابعة ما كان لها أن تتم لولا وجود ببليوغرافيا خاصة بكل موضوع .

« إن القيام بهذا العمل أمر على غاية من الضرورة ، إلا إذا أردنا أن ندور في مكان واحد لانبرحه ، وأن نقنع بمسخ ما ينتجه الآخرون ونسخه ، والحياة عالة عليهم حتى عندما يتعلق الأمر بقضية البحث عن ذاتنا الثقافية أو اكتشافها »(١٥) .

- ** توفير التسهيلات الضرورية لقيام بحث علمي عربي

وربما كان في طليعة هذه التسهيلات المادة ـ المصدر التي تشمل الكتاب ، والدورية ، والنشرة ، والأوراق الخاصة والوثائق الرسمية وغير الرسمية ؛ ومراكز البحث والدراسة ، وذلك إضافة إلى توفير المنح والمكافآت للباحثين ورفع مستواهم المعيشي وتفريغهم بدل الإثقال عليهم

بالأعباء الإدارية والتدريسية ، وغير ذلك مما يشكل القاعدة التي لا غنى عنها لقيام بحث عربي ينتمي للعصر الذي نعيش فيه بدل العيش عالة عليه .

**☆☆☆ تحسين مستوى تعليم اللغات الأجنبية**

إن رفع مستوى تعليم اللغات الأجنبية في الجامعات العربية بشكل عام ونشرها ضمن صفوف الباحثين لأمر ضروري بالفعل . والواقع أنه إضافة إلى متطلبات استقصاء المادة العلمية ، فإن القراءة بلغة أخرى تخلق في نفس الباحث نوعاً من الرقابة على مستوى ما يكتب ، إذ أنه عندها لا يقيسه فقط بما يكتب في تراثه وثقافته في الموضوع الذي يطرقه ، بل بما يُكتب باللغات الأخرى أيضاً . وإذا ما أمل المرء أن يكون كل الباحثين على درجة كبيرة من الطموح في رفع مستوى دراساتهم ، فإن هذه المعرفة تغدو حافزاً مستمراً للباحث على تطوير نفسه ، وبالتالي على تطوير التقليد الثقافي الذي ينتمي إليه كدارس .

☆ ☆ ☆

وفي الخاتمة لا يسع المرء إلا أن يؤكد أن هذه الملاحظات هي من قبيل المقترحات التي حفزتها التجربة الشخصية لصاحب هذه السطور ، وهي دون شك طموح مشروع إذا ما حاولنا أن نعمل لتحقيقه . فقل اعملوا ، وإن غداً لمن يعمل له لقريب .

**عبد النبي اصطيف**

كلية سانت أنتوني

( جامعة اكسفورد )

## هوامش

(١) د . حسام الخطيب .

« الاستشراق في ثوب جديد » ، **البعث** ( دمشق ) العدد ، ٥٥٢٢ ، ١ / ٢ / ١٩٨١

(٢) انظر :

ساسون سوميخ ، **الايقاع المتغير : دراسة في روايات نجيب محفوظ** ، ليدن ، ١٩٧٣

دافيد صيمح ، **أربعة نقاد أدب مصريين** ، ليدن ، ١٩٧٤

شموئيل موريه ، **الشعر العربي الحديث ١٨٠٠ ـ ١٩٧٠ : تطور أشكاله وموضوعاته تحت تأثير الأدب الغربي** ، ليدن ١٩٧٦

وجميعها بالانكليزية ، نشرت من قبل الناشر المعروف « بريل » بمساعدة الجامعات الصهيونية ( تل أبيب ، حيفا والعبرية )

S . Somekh, **the changing rhythm : A Study of Najib Mahfuz's Novel**, leiden, 1973.

David Semeh, **four Egyptian literary Critics**, leiden, 1974.

S . Moreh, **Modern Arabic poetry : 1800-1970 : the Development of its forms and themes under the Influence of Western literature**, leiden, 1976.

(٣) انظر ، عبد النبي اصطيف ، « تحت عيون صهيونية » ، **الدستور** ( لندن ) ، السنة العاشرة العدد ٤٥٦ ( لندن ١٢٠ ) ، الاثنين ١٠ ـ ١٦ مارس ، ص ٦٢

(٤) د . حسام الخطيب ، المرجع السابق .

(٥) انظر على سبيل المثال :

ـ عبد النبي اصطيف ، « المؤتمر السنوي السادس للجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط : وقائع وهوامش » **مجلة مجمع اللغة العربية** ( دمشق ) المجلد ٥٥ ، العدد ٤ ، ١٩٨٠ .

ـ « ببليوغرافيا اسلامية عربية : دليل مجلس مكتبة الشرق الأوسط وقصة ستة عقود » المرجع السابق ، المجلد ٥٥ ، العدد ١ ، ص : ١٦٤ ـ ١٨٨

ـ « نحو استعراب جديد ، مجلة الأدب العربي » **الموقف الأدبي** ( دمشق ) ، العددان ١٠٧ ـ ١٠٨ ، آذار ـ نيسان ، ١٩٨٠ ، ص : ٢٠٧ ـ ٢١٥ .

ـ « سفراء دون اعتماد : مؤلفون عرب » **المعرفة** ( دمشق ) السنة ٢٢ ، العدد ٢٥٥ ، أيار ١٩٨٣ ، ص : ٢٠٧ ـ ٢١٣

(٦) **P . crone and M. Cook, haggarism : the Making of the Islamic World**, C.U.P. 1977.

P. VIII

(٧) المرجع نفسه ، ص ٣٠ . ibid, P. 3.

(٨) انظر ، عبد النبي اصطيف ، « الهاجرية : بديل جديد للإسلام » ، **المعرفة** ( دمشق ) ، السنة السابعة عشرة ، العدد ٢٠٤ ، شباط ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠١ .

(٩) Albert Hourani, **the Emergence of the modern middle East,** University of California Press, Berkly, 1981, P. 37.

(١٠) انظر ، ألن جونز ، « الهاجرية » ، **المعرفة** ( دمشق ) ، السنة السابعة عشرة ، العدد ٢٠٤ ، شباط ، ١٩٧٩ ، ص : ٢٠٣ ـ ٢٠٧ .

(١١) patricia Crone, **Slaves on horses : the Evolution of the Islamic polity,** C.U.P. 1980 .

(١٢) Michael Cook, **Early Islamic Dogma : A Source-Critical Study,** C.u.P. 1981 .

(١٣) د . حسام الخطيب ، المرجع السابق .

(١٤) انظر تقديم عبد النبي اصطيف ، « **الاستشراق** » الذي مهد به لدراسة ألبرت حوراني لكتاب **الاستشراق** والمعنون بـ « الطريق إلى المغرب : قراءة في الاستشراق » **التراث العربي** ( دمشق ) ، السنة الثانية . العدد ٧ ، نيسان ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٣ .

(١٥) انظر عبد النبي اصطيف

« ما زالت الدراسات العربية تدور في فلك الاستشراق » .

**الدستور** ( لندن ) السنة العاشرة ، العدد ٤٧٨ ( لندن ١٤٢ ) الاثنين ١١ ـ ١٧ ١٩٨٠ ، ص ٦٢ .